

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ] {آل عمران:102}

[يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا]

{النساء:1}

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا] {الأحزاب:70-71}

أما بعد: فهذه كلمة بعنوان (التصفية: حقيقتها، ومسوغاتها، وجالاتها)

أتحف بها إخواني في هذه المناسبة الكريمة لعل الله أن ينفعني بها وإياهم، مرتبا فقراتها حسب تسلسل عناصر الموضوع مستعينا بالله تعالى فأقول :

1- حقيقة التصفية:

هل بلغ من فقهننا أن نعلم أن الدين الإسلامي هو المقبول عند الله؟ [وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ] {آل عمران:85}

وهل بلغ من فقهننا أن نعلم أن الدين هو ما جاءنا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من وحي الكتاب والسنة؟

وهل نحن مستعدون لمراجعة عقائدنا وعباداتنا وسلوكياتنا وعاداتنا وتقاليدينا وعرضها على الكتاب والسنة لمعرفة حكمها ومن حيث الأخذ والرد؟

هل نحن مستعدون لقبول كل ما يثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من تعاليم؟

هل بلغ من إيماننا أن نقلع عن كل ما هو ملصق بهذا الدين؟ حتى وإن كان من أصدق به من أقرب الناس إلينا كأبائنا وأجدادنا ومن نحبهم؟

بعد ذلك كله هل نحن مستعدون للتغيير؟ لتغيير ما ينبذه الكتاب والسنة ويتنافى مع مقتضيات الاقتداء بسيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم وإن صعب التغيير؟

إن وفقنا في الجواب على هذه الأسئلة استطعنا أن ندرك ونقبل هذا الموضوع - موضوع التصفية - وحتى نتصور حقيقة التصفية فلنبداً بتعريفها فنقول:

التصفية في اللغة: التنقية والطهير.

وفي الاصطلاح: تنقية الدين الإسلامي-عقيدة وشريعة وسلوكا- مما هو غريب عنه أو بعيد منه.

والعمدة في ذلك قوله تعالى: [هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ] {الجمعة:2}

فالعبارات كلها -اعتقادية كانت أو بدنية أو مالية - ما هي إلا عمليات ووسائل تزكية وتصفية تزيل ما على القلب من الرين، وتخلص العبادة من الشرك والبدعة.

2- مسوغات التصفية:

لقد أطبق العلماء والباحثون المسلمون على أن كل ما وقع فيه المسلمون اليوم من تفرق وضعف وخور وتخاذل وغير ذلك من وجوه الانحطاط إنما هو لبعدهم عن حقيقة الإسلام، ويبدو لي أن ذلك يرجع إلى أمور منها:

- 1- التباس ما ليس من الدين بما هو منه.
 - 2- ضعف اليقين بما هو من الدين.
 - 3- التقصير العملي بأحكام الدين.
- ومن هنا نقرر أن معالجة هذا الواقع المرير يأتي في مقدمة أولويات المهام المناطة على عاتق أهل الدعوة والإصلاح، وعليه نستطيع أن نقول إن مسوغات التصفية التي هي أهدافها يمكن تصنيفها على مرحلتين:
- الأولى:** مسوغ وهدف عام وبعيد: وهو تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى في الحياة على مستوى الفرد والجماعة على حد قوله تعالى: [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ] {الذاريات:56} وقوله تعالى: [هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ] {التوبة:33}
- الثانية:** ما يمكن أن يصنف كهدف تفصيلي خاص وقريب يلزم البدء به الآن وهو أقسام:

- 1- تصحيح ما طرأ على الحياة الإسلامية من الشرك والبدعة والانحراف.
 - 2- تجديد أمر الدين في واقع هذه الأمة وإرجاعها إلى حقيقة الإسلام الصافية.
 - 3- بناء الحياة الاجتماعية والأخلاق والمعاملات على الأصول التي قام عليها مجتمع السلف الصالح.
 - 4- إعداد قاعدة من الجيل الصاعد تحمل أمانة الدعوة والإصلاح.
- 3- مجالات التصفية:**

تتعدد مجالات التصفية بحسب تعدد ما دخل على أصول الدين وفروعه من محدثات وعوائد وتحريفات، وأهم هذه المجالات ما يلي:

1. مجال العقيدة:

وصلت العقيدة الإسلامية المستنقاة من الوحيين نقية من الخرافات، خالصة من الشوائب، بعيدة عن أباطيل الشرك، سالمة من متهاتات التأويل الفاسد. لكن عند ما ابتعد كثير من الناس عن سبيل أهل الحديث من السلف الصالح في التعامل مع نصوص الكتاب والسنة وقعوا في المحذور من الشرك في تحريف نصوص الصفات الإلهية، وتأويلها وصرفها عن حقائقها اللغوية والشرعية اللانقاة بذات الباري عز وجل، فصار من مسلمات هؤلاء لزوم تأويل الصفات الخبرية بعد تقديم العقول المريضة على النصوص الشرعية، ووضعوا في ذلك قواعد للتأويل كقول اللقاني في جوهرة التوحيد:

وكل نص أو هم التشبيها أوله أو فوض ورم تنزيها

والحق في هذا الباب أن لا يتجاوز القرآن والحديث، بل نصف الله بما وصف به نفسه في قرآنه، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل، ونعرف معاني هذه الصفات ونثبتها. وفي باب الألوهية نصب كثير من الناس آلهة أخرى يتوجهون إليها بأنواع القربات من الدعاء، والذبح، والنذر، ومن رأى ما يحدث عند القبور المشيدة والمشاهد المقبية لا يعتريه أدنى شك في مصداقية هذا الواقع المؤسف.

وفي باب الربوبية جعل هؤلاء لآلهتهم الأخرى من القدرة على التصرف في الكون والحياة ما هو حق محض لله العلي القدير، فجعلوا للإنسان الضعيف المسكين المربوب ما لا يستحقه إلا الله.. واسمع جواب المصطفى المختار الذي أرسل برسالة التوحيد حين قال له رجل: "ما شاء الله وشئت" فقال له: "أجعلتني لله ندا؟ بل ما شاء الله وحده"¹

يقول الشيخ الألباني رحمه الله في كتابه القيم (تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد): " وإن مما يأسف له كل مسلم طاهر القلب أن يجد كثيرا من المسلمين قد وقعوا في مخالفة شريعة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم التي جاءت بالابتعاد عن كل ما يخدج بالتوحيد ثم يزداد أسفا حين يرى قليلا أو كثيرا من المشايخ يقرونهم على تلك المخالفة بدعوى أن نياتهم طيبة ويشهد الله أن كثيرا منهم قد فسدت نياتهم وران عليها الشرك بسبب سكوت أمثال هؤلاء المشايخ بل تسويغهم كل ما يرونه من مظاهر الشرك بتلك الدعوى الباطلة ، أين النية الطيبة يا قوم من أناس كلما وقعوا في ضيق جاءوا إلى ميت يرونه صالحا فيدعونه من دون الله ويستغيثون به ويطلبون منه العافية والشفاء وغير ذلك مما لا يطلب من دون الله وما لا يقدر عليه إلا الله ؟ بل إذا زلت قدم دابتهم نادوا : يا الله يا فلان .

بينما هؤلاء المشايخ قد يعلمون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سمع يوما بعض الصحابة يقول له : ما شاء الله وشئت فقال : أ جعلتني لله ندا ؟ فإذا كان هذا إنكار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على من آمن به صلى الله عليه وآله وسلم فرارا من الشرك فلماذا لا ينكر هؤلاء المشايخ على الناس قولهم : يا الله يا فلان مع أنه في الدلالة على الشرك أوضح وأظهر من كلمة ما شاء الله وشئت ؟ ولماذا نرى العامة يقولون دون أي تحرج : " توكلنا على الله وعليك " و " مالنا غير الله وأنت " ؟ ذلك لأن هؤلاء المشايخ إما أنهم مثلهم في الضلال وفاقد الشيء لا يعطيه وإما أنهم يدارونهم بل يداهنوهم كي لا يوصموا ببعض الوصمات التي تقضي على وظائفهم ومعاشاتهم غير مباليين بقول الله تعالى [إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ] {البقرة:159}

أين هذه التعليمات النبوية من قول صاحب الهمزية مخاطبا النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

هذه علتني وأنت طيببي ليس يخفى عليك في القلب داء

ومن ذلك أن يجعل الحكم في الدماء والأعراض والأنفس والأموال لغير الله، والله تعالى إنما أنزل كتابه ليكون مصدر سعادة للناس في الدنيا والآخرة ولا يكون ذلك إلا بالرجوع إليه عند التنازع والاختلاف، قال تعالى: [إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا] {النساء:105}

¹ (رواه أحمد عن ابن عباس بسند حسن)

وقال تعالى: [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا] {النساء:60}

وقال تعالى: [أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ] {المائدة:50}

وقال تعالى: [وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ] {المائدة:44}

وقال تعالى: [وَكُنْتُمْ عَلَيهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ] {المائدة:45}

وقال تعالى: [وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ] {المائدة:47}

وقال تعالى: [أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ] {الشورى:21}

وقال الإمام ابن أبي العز رحمة الله: "وهنا أمر يجب أن يتقطن له وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرا ينقل عن الملة، وقد يكون معصية كبيرة أو صغيرة، ويكون كفرا إما مجازيا وإما كفرا أصغر على القولين المذكورين، وذلك بحسب حال الحاكم: فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب وأنه مخير فيه، أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله، فهذا كفر أكبر.

وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله وعلمه في هذه الواقعة، وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا عاص ويسمى كفرا مجازيا أو كفرا أصغر.

وإن جهل حكم الله فيها مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم وأخطأه، فهذا مخطئ له أجر على اجتهاده وخطؤه مغفور. (1)

والمقصود: أنه لا بد من تصفية العقيدة مما علق بها من الشوائب، وليس هذا خاصا بباب من أبواب العقيدة بل هو شامل لكل أبوابها.

وأية دعوة لا تبدأ بتصفية العقيدة سوف لن تثمر ولن تؤتي أكلها، لذلك لم يبدأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعوته بالفروع، ولم يطالب الناس أول ما طالبهم بالقتال ولا بالزكاة، ولا بالصوم، ولا بترك الخمر والميسر، وإنما طالبهم بالإيمان بالله وحده، وقلع ما يعبدون من دونه: جاء في الصحيحين أن الله تعالى لما أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بإظهار دينه صعد الصفا ونادى: يا معشر قريش، قالت قريش: محمد على الصفا يهتف، فأقبلوا عليه يسألونه ما الأمر؟ فكان مما قال: "يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة، يا بني تيم، يا بني مخزوم، يا بني أسد، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله".

2. مجال السنة النبوية:

لقد وصلتنا السنة النبوية بالأسانيد في كتب معروفة ومصنفات مخصوصة متعددة الأنواع إلى ما يقارب خمسين نوعا من التأليف والتصنيف.. وهنا أمور :

(1) (شرح العقيدة الطحاوية ص334)

1- إن أكثر المصنفين لم يشترطوا إفراد الصحيح عند ما صنّفوا كتبهم فأخرجوا الصحيح والحسن والضعيف والموضوع.

2- أن بعضهم اشترط إخراج الصحيح لكن اعتراه نوع من التساهل فأخرج ما ليس بصحيح.

والقاعدة عند علماء الحديث أن المحدث إذا ساق الحديث بسنده فقد برئت عهده منه ولا مسئولية عليه في روايته، ما دام قد قرن معه الوسيلة التي تمكن العالم من معرفة ما إذا كان الحديث صحيحاً أم لا؟.

3- أنه ليس بخاف على طالب العلم الانتشار الكبير للأحاديث الضعيفة والموضوعة بين مختلف طبقات الناس من وعاظ، وكتاب، ومتحدثين، وعوام.

وكم جر العمل بالأحاديث الضعيفة والموضوعة على الأمة من متاعب وكم خرب من عقائد.

* فكم سمعنا من يردد حديث المكث في المدينة للحاج من أجل أداء أربعين صلاة؟ (1) وكم جر ذلك من حرج يؤدي أحياناً بالحاج إلى ارتكاب محظورات شرعية كالتسول واللجوء إلى السلب والنهب والسرقة.

* وكم سمعنا من الخطباء والوعاظ من يردد " أعرفوني قبل أن تعبدوني فإن لم تعرفوني فكيف تعبدوني " ولا يوجد مسنداً.

* وكم من المحاضرين سمعناهم يقولون " حب الوطن من الإيمان " منسوبا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهو موضوع كما في الضعيفة للألباني.

* وكم من متحدث بنى حديثه على مقولة " اطلبوا العلم ولو بالصين " كدليل على مشروعية طلب فنون العلم المختلفة، قال الألباني في ضعيف الجامع: موضوع.

* ومن الأحاديث الدائرة على السنة الناس بكثرة وهي ضعيفة أو موضوعة:

- "أدبني ربي فأحسن تأديبي" ضعيف.

- "أحب العرب لثلاث ... " موضوع.

"أنا مدينة العلم وعلي بابها" موضوع

المقصود أنه لا بد من تصفية مرويات الأحاديث ودراسة أسانيدھا ومتونها حتى نميز الخبيث من الطيب، وذلك له فوائد جمة منها:

1- أنه بتصفية الروايات يسلم للعبد أصل الاتباع، ويجتنب غوائل البدعة.

2- التحذير من الشرك وما دخل على الدين من محدثات شوّهت جماله، وكدرت صفاءه وعكرت ما كان عليه من جمال ونقاء.

3- استعادة الحياة الإسلامية النقية في مجال العقيدة والعبادة والسلوك.

3. مجال الفقه الإسلامي:

إن الفقه الإسلامي يمتاز باحتوائه ثروة علمية عملية ضخمة تدل على شمولية هذا الدين لجميع القضايا ذات الصلة بحياة الأمة وما يصلحها ويدراً عنها الفساد.

غير أنه قد طرأ على الفقه الإسلامي قضيتان شائكتان في حاجة إلى حل جذري، وذلك لا يتم إلا بالتصفية:

(1) هذا الحديث رواه أحمد والطبراني وهو حديث منكر كما حققه الألباني في الضعيفة رقم

مكتب الدكتور محمد أحمد لوح
القضية الأولى: التقليد الأعمى والقول بوجوبه: حيث رأى عدد من المقلدين أن تقليد
واحد معين من الأئمة الأربعة المشهورين واجب حتمي على حد قول صاحب
الجوهرة:

فواجب تقليد حبر منهم كذا حكى القوم بلفظ يفهم
والتقليد هو الأخذ بقول الغير دون دليل، والقول بوجوبه باطل عند الأئمة الأربعة:
قال أبو حنيفة رحمه الله: " لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه."
(1)

وقال مالك رحمه الله: "إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في رأيي فكل ما وافق
الكتاب والسنة فخذوه؛ وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه." (2)
وقال الشافعي رحمه الله: " كل ما قلت وكان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم
خلاف قلبي مما يصح فحديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم أولى ولا تقلدوني."
(3)

وقال أحمد رحمه الله: " لا تقلد دينك أحدا من هؤلاء ، ما جاء عن النبي صلى الله
عليه وآله وسلم وأصحابه فخذة ثم التابعين بعد الرجل فيهم مخير." (4)
وقال العدوي في شرح الجوهرة تعليقا على البيت السابق: " فلا نعرف للمصنف سلفا
في وجوب تقليد إمام معين" (5)

القضية الثانية: إغلاق باب الاجتهاد: لما أفرط الناس في تقليد المذاهب، وتركزت
جهودهم على نصوص الأئمة والأتباع دراسة وتحليلا فرطوا في القيام بطلب
الاجتهاد ووسائله ونادوا بسد بابه في منتصف القرن الرابع بدون دليل يعتمد عليه.
(6)

وهذا القول كما يقول أبو محمد بن حزم: " في غاية الفساد وكيد للدين لا خفاء به
وضلال مغلق، وكذب على الله تعالى، إذ نسبوا ذلك إليه أو دين جديد أتونا به من
عند أنفسهم ليس من دين محمد في شيء." (7)

ونج عن القضيتين مشكلة خطيرة وهو التعصب الأعمى، وله صور كثيرة يراها
من نظر في كتب المتعصبين ولنذكر بعض الأمثلة على ذلك:

يقول أبو الحسن الكرخي: " كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي مؤولة أو منسوخة،
وكل حديث كذلك فهو مؤول أو منسوخ أو ضعيف."⁸ يقول صاحب مراقي الفلاح
ص 21 في ماء البئر إذا وقع فيه حيوان مات وانتخ: " فإذا عجن بمائها يلقي للكلاب،
أويلف به المواشي، وقال بعضهم : يباع لشافعي"

(1) (الانتقاء لابن عبد البر ص145)

(2) (جامع بيان العلم وفضله 32/2)

(3) (ابن أبي حاتم: آداب الشافعي ومناقبه 66/1)

(4) (مسائل أحمد لأبي داود رقم 277)

(5) (الجديد على جوهرة التوحيد ص111)

(6) (انظر مقدمة كتاب إرشاد النقاد ص25 بفلم صلاح الدين مقبول)

(7) (الإحكام في أصول الأحكام 572/4)

8 (تاريخ التشريع الإسلامي ص332 للشيخ محمد الخضري)

يقول محمد بن موسى البلاساغوني: "لو كان لي أمر لأخذت الجزية من الشافعية"¹ وكان من نتائج هذا التعصب الممقوت أن تبرأت فئام من المسلمين من بعضهم ونشبت حروب دامية بين المتعصبين في أماكن كثيرة من العالم الإسلامي والله المستعان.

المقصود: أنه واجب لكي نخرج من هذه الحالة المزرية أن نصفي الفقه الإسلامي مما شابه من اجتهادات مخالفة للكتاب والسنة وإطلاقات باطلة دون دليل أو برهان.²

ونثبت مرتبة الاتباع وهي المرتبة الوسطى بين التقليد والاجتهاد، وتعني قبول ما ثبتت عليه حجة شرعية.³

4. مجال التفسير:

تفسير القرآن الكريم علم كريم وفن عظيم يتعلق بفهم كتاب الله تعالى فينبغي ألا يخوض فيه إلا العارف بأصول الإسلام ومقاصده وفروعه، الممارس للسنة النبوية دراسة وتطبيقاً، الخبير بآثار السلف الصالح، الفاهم لدقائق لغة العرب، المطلع على ناسخ القرآن وأحكامه وآدابه.

والواقع أن كتب التفسير قد دخلها خلل من جهة نقل أخبار لا تثبت، ومن جهة حشوها عند بعض المفسرين بما لا يمت إلى التفسير بصلة، ومن جهة تحميل آيات الكتاب ما لا تحتل.

ويمكن أن نمثل بقصتين مشهورتين ورد ذكرهما في كثير من كتب التفسير، وأخذ بها بعض المسلمين دون علم بما تحتها:

القصة الأولى: قصة زواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم بزَيْنَب بنت جحش رضي الله عنها: منهم من أورد الروايات الصحيحة فقط ولم يتعرض إلى الروايات الضعيفة.

و هو حال بعض العلماء، و من أمثلة ذلك:

أ. ابن هشام في السيرة النبوية:⁴

ب. محمد بن الحسن بن زبالة (ت199هـ):⁵

ج. ابن القيم في { زاد المعاد في هدي خير العباد }، 1 / 108 - 109، ط مؤسسة الرسالة - ط/الثانية 1401 هـ.

1 (ميزان الاعتدال 51/4)

2 (اسمع مثلاً إلى ما يقول ابن عابدين في حاشيته 302/1: "الكعبة إذا رفعت عن مكانها لزيارة أصحاب الكرامة ففي تلك الحالة جازت الصلاة إلى أرضها.")

3 (راجع للمزيد ما نقله السنوسي عن ابن خويز منداد في إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن ص119)

4 انظر السيرة النبوية ج 4 / 644 ط- الحبلي الثانية. و انظر تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون ص 332 ط- مؤسسة الرسالة - السابعة 1400 هـ.

5 انظر كتاب منتخب من كتاب { أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم } / رواية الزبير بن بكار (ت 256 هـ) تحقيق/د. أكرم. العمري. ط. الأولى. سنة 1401 هـ، من مطبوعات الجامعة الإسلامية. ص (57).

مكتب الدكتور محمد أحمد لوح
قسم الدعوة
د. الذهبي ، في { سير أعلام النبلاء } 211 / 2 ط- مؤسسة الرسالة ط/ الرابعة.
هـ. الشيخ الجزائري، في { هذا الحبيب يا محب } ص 485 - 486 ط/ مكتبة لينة الأولى.

و. الحافظ بن حجر، في { الفتح } 523 / 8 و ما بعدها.
(2). و منهم من أورد الروايات الصحيحة و أشار إلى وجود الروايات الضعيفة، مع إعراضه عنها، و ذكر سبب الإعراض، و من هؤلاء العلماء:

الحافظ ابن كثير، في { البداية و النهاية } ج 4 / 145 - 149 ط - دار الفكر العربي.

الحافظ ابن حجر، في { الفتح } 142 / 10 و تفسير القرآن العظيم 3 / 491 ط - الحبلي.

(3). و منهم من بيّن الروايات الضعيفة و الباطلة و بيّن بطلانها و تهافتها، و من هؤلاء:

أ- الحافظ ابن حجر في {الفتح} 403 / 8.

ب- ابن العربي في { أحكام القرآن } 3 / 1530 ، 1532.

ج- الألويسي، في " تفسيره " 24 / 22 - 25 .

د -الخازن، في " تفسيره " 4 / 262 .

هـ. د/ إبراهيم علي شعوط في كتابه { أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ } ص 70- 80 ، إلا أنه وقع في كلامه ما يشينه من استشهاد بمثل انجليزي ص 71، و كلام لا يليق ص 72 من ط - المكتب الإسلامي، و رد عليه بشدة و قوة حسني شيخ عثمان في كتابه { أباطيل الأباطيل } ص 95 - 97 ط - مكتبة الصديق - الطائف- الأولى سنة 1409 هـ .

(4). و منهم من أورد الغث و السمين بلا تمييز و لا تدقيق و لا تمحيص: و منهم:

أ- الطبري في تاريخه 2 / 562 و ما بعدها ط- دار المعارف.

ب- ابن الأثير، في { الكامل } 2 / 121 .

ج- أبو السعود ، في تفسيره 4 / 212 .

د. النسفي ، في تفسيره .

بل بعضهم بنى على هذه القصة الواهية أحكاما و كلاما خبيثا كالزمخشري في الكشف/ 213- 214 ط- عبد الرحمن محمد؛ فجاء أعداء الإسلام من المستشرقين و أذئابهم في الشرق و استغلوا مثل هذه الأكاذيب و الآثار و تكلموا بما لا يليق بنبينا محمد صلى الله عليه وآله و سلم، و من هؤلاء:

مدام ريكاميه في كتابها { حياة محمد } ص 214.

جستاف لوبون في كتابه { حضارة العرب } ص 112.

جـ. د./ طه حسين في كتابه { على هامش السيرة } 3 / 227 ط- دار المعارف.

وأخيرا: لعل السر في وقوع المفسرين و المؤرخين في هذا الخطأ، هو ما قاله ابن خلدون في مقدمته: " إنه كثيرا ما وقع للمؤرخين و أئمة النقل من المغالط في الحكايات و الوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا و سمينا، و لم يعرضوها على أصولها، و لا قاسوها بأشباهها، و لا سبروها بمعيار الحكمة، و الوقوف على

طبائع الكائنات، و تحكيم النظر و البصيرة، فضلوا عن الحق، و تاهوا في بيداء الوهم و الغلط".¹

القصة الثانية: وهي القصة المنسوبة للصحابي الجليل ثعلبة بن حاطب رضي الله عنه، وهي قصة مشهورة قلما يخلو منها كتاب من كتب التفسير، إذ يذكرون أنه كان عاهد الله إن رزقه مالا أن ينفق منه في سبيل الله، ثم إن الله تعالى أتاه المال ولم يف بعهدده، ولم يدفع حتى زكاة ماله، فوصفه الصحابة الآخرون بالنفاق، إذ لم يقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخذ زكاته، ولا أبو بكر ولا عمر حتى هلك في خلافة عثمان رضي الله عنه، وزعموا أن قصته هي سبب نزول قوله تعالى: [وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِن آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ] {التوبة:75-77}

ولا يخفى أن في القصة اتهاماً فظيماً لصحابي جليل من أهل بدر المغفور لهم. وهذه القصة أوردها الزمخشري في الكشاف 302/2، وابن الجوزي في زاد المسير 472/3، والرازي في مفاتيح الغيب 130/16، والخازن في تفسيره 126/3، والبيضاوي في أنوار التنزيل 75/3، والشهاب في حاشيته 246/4، وابن كثير في تفسيره 373/2، والسيوطي في الدر المنثور 260/3، والإكليل ص121، وأبو السعود في تفسيره 85/4، وغيرهم كثير دون أن ينبهوا إلى بطلانها، أو يتكلموا في نكارتها. وقد تكلم جهابذة الحديث والنقاد في هذه القصة بكلام متين لا يستطيع أحد أن يسمعه دون أن يسلم به، فبينوا زيفها: ومنهم الحافظ ابن حجر في الفتح 266/3، والحافظ العراقي في تخريج الإحياء 366/3، والمناوي في الفيض 527/4، وابن حزم في المحلى 207/11، وابن حمزة في البيان والتعريف 66/3، والألباني في ضعيف الجامع 125/4، وسليم الهلالي في (الشهاب الثاقب في الذب عن الصحابي ثعلبة بن حاطب)، وهداب الحمش في (ثعلبة ابن حاطب الصحابي المفترى عليه)، وغيرهم. ومن هذه الوجهة نجد أن كتب التفسير بحاجة ماسة إلى التصفية والتنقية حتى ينكشف أمر أمثال هذه القصص الواهية فضلا عن غيرها مما يشوه جمال كلام الله سبحانه.

ويدخل في تصفية كتب التفسير الرد على مخالفى الحق من المفسرين كما فعل ابن كثير مع الرازي في مسائل كثيرة.² وكما فعل العديد من أهل العلم مع الشيخ الصابوني، وكما تتبع الشيخ محمد بن عبد الرحمن المغراوي أخطاء المفسرين المتعلقة بالصفات في كتابه (المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات)، وذلك نوع من التصفية. وكل ما قيل عن الفنون السابقة يقال في بقية الفنون كالتاريخ، والسلوك والتزكية، والفكر، والدعوة وسبلها ووسائلها. وفي هذه العجالة لا يتسنى لنا التفصيل في هذه العناصر، فنكتفي بما سمعتم .

1 مقدمة ابن خلدون و شرح الدكتور علي عبد الواحد، 125/1 و ما بعدها .

2 انظر في الكتابين تفسير قوله تعالى: [وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ] البقرة:102

مكتب الدكتور محمد أحمد لوح
قسم الدعوة
وأسأل الله جل وعلا أن يرزقنا وإياكم الفقه في الدين والإنصاف واليقين، والعمل
بسنة سيد المرسلين.
وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.
(كُلْبَان/7/16/2006م)